مؤسس لغتنا الموسيقية

سيد درويش

أقامت الهيئة العامة لقصور الثقافة مسابقة موضوعها «ألحان سيد درويش» شاركت فيها ٤٠ فرقة من محافظات مصر. لم تكن الجائزة المادية للمسابقة هى المكسب الوحيد فيها. إنما التعرف إلى خزائن هذا الفنان العبقرى. وكان أداؤها مكسبا أكبر.

عاشت مصر ليالى سيد درويش بحب واندمجت فى نغماته وأفكاره لمحاربة الآفات الاجتماعية التى تصيب أى مجتمع. وفى التغنى بحب مصر. وهلهلة أعدائها من المحتلين والحكام الفاسدين. بالإضافة إلى رؤيته فى تناول الأعمال المسرحية.

كانت المسابقة. تقديرا حقيقيا للسيد درويش من جانب الدولة ممثلة فى وزارة الثقافة. فكل ما سبقها من احتفالات أو تكريم للرجل لا يفيه حقه.

أما أشكال التكريم السابقة لسيد درويش فهى أوبرا باسمه فى الإسكندرية. وقاعة بأكاديمية الفنون بالجيزة. وتمثال فى حديقة دار الأوبرا. وشارع يحمل اسمه فى وسط القاهرة. وطابع بريد بمناسبة ذكرى مولده. كل ذلك لا يكفى وما قامت به هيئة قصور الثقافة هو الأنسب. لتكريم موسيقار سبق عصره. وأرسى دعائم اللغة العربية للموسيقى وتحويلها من وسيلة للترفيه الرخيص أو الغانى إلى وردة رقيقة فى الحب، وحد السيف ضد الخونة والمحتلين ذلك أنها ألقت الضوء على أعماله وهيأت الفرصة ليرددها عدد كبير من الشعب.

أما الأعمال الدرامية التى تم تقديمها عن سيد درويش فليست كافية لا كما. ولا كيفا.

فيلم «سيد درويش» سيناريو سامى داود ومصطفى سامى. وحوار مصطفى سامى، وإخراج أحمد بدرخان. وعرض لأول مرة فى ٥ أكتوبر ١٩٦٦. موسيقى عبد الحليم نويرة، غناء إسماعيل شبانة وهانى شاكر، إنتاج الشركة العامة للإنتاج السينمائى العربى. هند رستم فى دور (جليلة) وكرم مطاوع فى دور (سيد درويش).

يدور الفيلم حول ميلاد سيد درويش بكوم الدكة ويتوفى والده فى سن صغيرة. وينمو على حب الموسيقى. ويحضر ذات يوم خطابا سياسيا لمصطفى كامل فتلتصق به كلماته التى يحولها بعد ذلك إلى أغنية وطنية ملتهبة. يسافر إلى سوريا ويكتشف موهبته هناك وعند عودته يتعرف إلى سلامة حجازى الذى يعلمه أصول الموسيقى. يتعرف إلى «جليلة» العالمة المشهورة. تعترض الأسرة على ممارسة سيد للغناء فى البارات. تنمو العلاقة مع جليلة. ويصبح موسيقارا مشهورا ويقرر السفر إلى القاهرة ويستوحى الأغنيات من الأحداث السياسية والاجتماعية. ويشارك بالغناء فى ثورة ١٩١٩. ويساهم فى أعمال المقاومة. يطارده العسكر البريطانيون. فيهرب. وبعد المطاردة يشعر بإجهاد شديد، ثم يثقل جسمه ويسقط على الأرض فى ليلة انتظاره لسعد زغلول مع أبناء الوطن.

الفيلم لم يرتفع لمستوى سيد درويش. لذلك اعترضت الناقدة صافيناز كاظم عليه كحقائق المعلومات وكإخراج وتمثيل وعلى الصورة المبالغ فيها فى حياته. ووصفتها بالابتذال وقلة الذوق وتشتيت الانتباه. وقالت إنها تعرف إذا كان المقصود هو فضح الحياة الخاصة والتبديد بسيرة الرجل ونهش عرضه بلا وازع رقة أو حنان. ثم إن الأغانى فى رأيها كان من الأنسب عرضها بصوت صاحبها مع الاعتراف بجمال صوت إسماعيل شبانة.

أما مسرحية «سيد درويش» التى كتبها الشاعر صلاح طنطاوى وقام محمد نوح فيها بدور سيد درويش فقد لاقت اعتراضات من محمد البحر بن سيد درويش بحجة أن بعض المعلومات والأسماء وترتيب الألحان ليست صحيحة.

ولا أحد ينكر مدى حساسية محمد البحر تجاه أعمال والده سيد درويش، بدليل عدد القضايا التى شهدتها المحاكم وهو طرف فيها والأطراف الأخرى جهات وفنانون تعرضوا لأعمال سيد درويش فى محاولة تقديمها.

ورث محمد البحر العصبية الإسكندرانية من والده الذى كان يثور ويهيج ويموج إذا سمع أى تحريف لألحانه من مؤدى أو كورال أو مطرب.

صاحبت الدكتور المهندس حسن محمد البحر درويش وصادقت حسن سيد درويش ووجدت فيهما فهما عظيما لألحان الجد. والوالد. وتأكدت أن التحريف قد نال من أعمال سيد درويش فعلا مع كثرة عمليات النقل والتحفيظ من جهات مختلفة ولم أسمع أن د. حسن قد تقدم للقضاء يشكو جهة أو فنان غنى لسيد درويش. أما عمه حسن درويش فيكتفى بإصدار الكتب التى يعبر فيها عما يشعر به تجاه التحريف. أو يعارض فيها شقيقه الأكبر محمد البحر فى مسائل فنية أو أسرية.

□□□

ولد سيد درويش ١٧ مارس ١٨٩٢ بحى كوم الدكة بالإسكندرية من أسرة فقيرة. بلغ سن الخامسة فأدخله والده - وكان يعمل نجارا - كتّاب سيدى أحمد الخياشى ليتعلم القرآن الكريم ويحفظه. وبعدها انتقل إلى مدرسة قريبة من منزله هى مدرسة «حسن أفندى حلاوة». وهناك التقى بسامى أفندى الذى أعجب بصوته واستعداده الموسيقى. نقله أبوه إلى مدرسة أخرى اسمها «شمس المدارس» فى قسم الجمرك. وهناك التقى بنجيب أفندى فهمى. وكان يعمل نهارا بالتدريس وليلا «ماكيير» فى فرقة جورج أبيض التى اتحدت مع فرقة سلامة حجازى.. وكان نجيب أفندى يحفظ أدوار الشيخ سلامة كلها. اهتم نجيب أفندى بموهبة الطفل سيد درويش بتحفيظه أدوار الشيخ سلامة وبعض أغانى عصره.

توفى والده ولم يبلغ سيد السابعة من العمر. فاضطر للخروج لكسب عيشه. من قراءة القرآن الكريم وغناء التواشيح والقصائد التى كان قد حفظها من الشيخ أحمد ندا والشيخ حسن الأزهرى بجامع كوم الدكة. وكان فى بعض الأحيان يعمل صبيا لعمال البياض. وكانوا كثيرا ما يطلبون منه أن يقوموا بعمله مقابل أن يتفرغ هو للغناء لهم.

التحق سيد كطالب بمسجد الشوربجى ليؤذن فيه. ثم ذاع صيته فى الغناء واشتهر بإحياء حفلات خاصة بالإسكندرية. يؤدى فيها ألحان إبراهيم القبانى وداود حسنى فى القاهرة والمنتديات الشعبية.

تزوج سيد وهو فى السادسة عشرة من عمره واستمر فى الغناء دون الالتزام بفنان محدد.

فى عام ١٩٠٩ وبينما كان يغنى سيد للعمال سمعه صاحب فرقة عطا الله وطلب منه أن يسافر معه إلى سوريا. وهناك علم بأن زوجته أنجبت ابنه الأول محمد البحر. فى رحلته لسوريا حفظ سيد أغنيات وأدوارا كثيرة وتواشيح وقصائد. كما تعرف إلى عثمان الموصلى

الذى لقنه الفن الخاص به. ولكن الرحلة على قدر نجاحها فنيا فشلت ماديا فأرغم سيد على العودة إلى الإسكندرية.

عمل فى محل لتجارة الآثاث يملكه زوج أخته الذى اشترط عليه أن يهجر الغناء. فكان يمارسه خلسة حتى ذاع صيته كأحد مشاهير الإسكندرية فطرده زوج أخته من العمل. ومن المنزل أيضا.

لحن سيد رواية «فيروز شاه» لفرقة جورج أبيض. وسافر مع الفرق إلى الشام للمرة الثانية ١٩١٢. وكانت رحلة ناجحة هذه المرة فنيا وماديا. واستطاع أن يمزج بين أساليب الغناء فى مصر وفى سوريا.

عاد سيد درويش إلى الإسكندرية وتعرف إلى «جليلة». ملهمته. ولحن فى حبها «عشقت حسنك» و «زوروني كل سنة مرة».

استمع سلامة حجازى إلى سيد درويش فأعجبه فنه ونصحه بالسفر إلى القاهرة. ونفذ النصيحة عام ١٩١٧ حيث تعاقد على الغناء فى كازينو البوسفور. وتعرف إلى أصحاب الفرق المسرحية هناك ولحن الكثير من أعماله المسرحية.

لم يتجاوز زمن الإبداع الفنى لسيد درويش ست سنوات. غير خلالها الغناء العربى، وأسس لغة الموسيقى العربية الحديثة المستخدمة بعده. أما أغانينا فقد تخلت إلى درجة كبيرة عن الحالة التى وضعها فيها. فعادت إلى الزخرفة التى قضى عليها وأصبح الكثير منها كلعبة للتسلية والترفيه.

التحم سيد درويش بالناس. عايش مشاكلهم واستفاد من آخر ما وصل إليه علم الموسيقى. ومازالت الآذان مبهورة بما سمعت وبأعمال نسمعها لأول مرة. وأخرى نسمع عنها ولم نسمعها.

كانت معلوماتى منذ سنوات الدراسة فى معهد الموسيقى العربية أن لسيد درويش عشرة موشحات. لكن البحث أكد أن له حوالى ٤٠ موشحا من المقامات العربية المختلفة والضروب المنوعة. وله موشحات دينية وهى لون نادر فى تراثه لم يسمعه كثيرون. ومنها: «ميلاد الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم» وغناه الشيخ أمين حسنين – مقام عجم عشيران – إيقاع مصمودى (٤/٨)، كما ابتكر إيقاعا يحمل اسمه فى موشح «يا صاحب السحر الحلال». أداه محمد مرسى من مقام الحجاز وأطلق على الإيقاع الخاص به اسم «فكرتى» وهو (١٥ على ٨).

ومن الموشحات التى لحنها سيد درويش، ألا يا من سلمت عقلى – أهوى قمرا سهامه عيناه – أيا مرادى إلى كم هذا الجفا – اجمعوا بالقرب شملى – العذارى المائسات – بالله أيا من أخذ العقل وسارا – بدا وفى كفه شمس الطلا تنجلى– بصفات جعلتنى – جعلنى غرامى – حبى دعانى للوصال – حبر الأفكار – رفقا بمن زاد اشتياقى – سل فينا اللحظ هنديا – صب يخال حبيبه – صحت وجدا– طرز الريحان حلة الورد – طف يا درى – ظبى من الترك – عجيب وغريب – غمضى جفونك يا عيون النرجس – فى سبيل الحب قلبا – من هواك فنى جلدى– كلما رمت ارتشافا – محبوبى قصد نكدى – منيتى عز اصطبارى – ناعم الخد المورد – نبه الندمان صاح – نرى العقد فى ثغره محكما – نم دمعى من عيونى– هل على الأستار هتك – والذى ولاك قلبى – يا بهجة الروح – يا ترى بعد البعاد – يا حمام الأيك أطرب – يا شادى الألحان – يا صاحب السحر الحلال– يا عذيب المرشف – يا غصين البان – يا مليكا تاه عجبا.

كان على سيد درويش أن يجارى أعلام التلحين فى عصره، فلحن القوالب التى تميزوا فيها وأكثروا منها من موشح، ودور، وقصيدة. وعلى رغم أنه تميز فى كل هذه الألوان وتنوعت موشحاته بين البسيط، أى الإيقاع الحى السهل مثل «يا بهيجة الروح» و «صحت وجدا» وبين ما يظهر القدرة على التلحين من الضروب الطويلة المعقدة مثل «منيتى عز اصطبارى» و «حبى دعانى للوصال».

وتناول سيد درويش تلحين «الدور» فى إطار الصياغة التقليدية لهذا القالب والتى أبدعها وأرسى تقاليدها محمد عثمان، ومع ذلك فلم تخل بعض أدواره بين تطوير وإضافة كما حدث فى مقطع الآهات المتبادلة بين المغنى والكورال (الهنك) فى دور «فى شرع مين». إضافة إلى أن أدوار سيد درويش سادها طابع التعبير العام والإحساس بالمناخ الذى ترسمه كلماتها.

لحن سيد درويش ١٢ دورا سجلت على أسطوانات بصوته ما عدا دور «يوم تركت الحب» سجله المطرب محمد أنور الخضيرى ودور «يلزم بقى تهنى الفؤاد» وتم تسجيله بصوت محمود مرسى.

أما دور «شكيت يا قلبى من ليلتين» فلم يلحن منه سيد درويش غير المذهب، وتم تسجيله بصوت ابنه محمد البحر.

لحن سيد درويش أدوار «عواطفك دى أشهر من نار» . «أنت أصل البدر عندى» . «يا فؤادى ليه بتعشق» . «عشقت حسنك» . «فى شرع مين» . «ياللى قوامك يعجبنى» . «الحبيب للهجر مايل» . «ضيعت مستقبل حياتي» . «أنا عشقت» . «أنا هويت» . وكتب كلمات معظم هذه الأدوار محمد يونس القاضى.

ومن الأعمال النادرة فى تراث سيد درويش ما لحنه من قصائد . وسلامات . أما القصيدة الغنائية فهى أقدم أشكال الغناء العربى وأكثرها انتشارا فى تراثنا. لحن منها ٢١ قصيدة منها ما كان فى مسرحياته الغنائية «الهوارى – عبد الرحمن الناصر – الدرة اليتيمة» ومنها ما تم تلحينه فى قالب منفرد مثل «أيها القلب تمهل واتئد – حن الزمان وجاء لى– رحمة الله على عهد مضى – سلى خيالك عن قلبى وما وجدا – صفالى الدهر يا سلمى – قد خيب الدهر يوم الوصال آمالى: وجميعها أداء حامد مرسى. ولحن فى مسرحياته للمجموعة قصائد: «إن هذا اليوم إن صح المقال» ، فى رواية «أوبريت الملك» و «حيوا الهوى والغراما بالدلال» و «قيل لى قد تبدلا» وتولى عكاشة قصائد «لوكريس لا تنسى يمينك واذكرى – وهل سمعتم أم رأيتم جنونا – يا هاجرى هل إلى الوصال منك بديلا».

وغنت لبيبة جانيللى: ما لذتى وانشراحى إلا نسيم الصباحى – هات يا ساقى الحميا.

وغنت فاطمة سرى قصيدة: الغصن يرقص من طرب. كما لحن قصائد: أيها الناظر إنا زاهرات وأزهار – حان الرحيل فودعوا أحبابكم.

كما لحن عدة أبيات فى شكل قصيدة كمقطع من افتتاحية أوبريت «شهرزاد» «اليوم يومك يا جنود» تقول الأبيات التى كتبها بيرم التونسى:

يا حياة الروح هل حالك حالى
تذكرين الوصل فى تلك الليالى
هل يزور الطيف ميدان القتال
أم يحول العمر من دون الوصال
فى رضا الأوطار إنى لا أبالى
إنما الإقدام من شأن الرجال

أما «السلامات» فهى قالب غنائى يؤديه كل المشتركين فى العرض المسرحى قبل رفع الستارة وفى نهاية العرض. وهى أناشيد بسيطة يرحب فيها المسرحيون بالمشاهدين وتتضمن الدعاء للسلطان محمد الخامس الخليفة الإسلامى بتركيا والخديوى عباس حاكم مصر. ويستخدم فى ألحانها الإيقاعات العربية بكثرة والتنويع فيها.

لحن سيد درويش لفرقة أمين وسليم عطا الله أربعة «سلامات» هى: غردت ورق توارت بين ندمات الطرب – نهيم دوما لتغريد الهزار – الصفا فاقت حدوده بالتهانى والسداد– يا هزار قم وغنى فوق غصن الياسمين. وربما لا يعرف كثيرون أن سيد درويش لحن قالب «الموال». ومن مواويله (طبابك يا جرح ماتوا وانت لسه حى) وموال (منين أجيب من يغنينى عن حبك».

ظلت الأغنية العربية منذ نشأتها إلى عصر سيد درويش. لا تتعدى موضوعاتها معانى الحب والغرام والوله والهيام. بعيدة عن أى قضية سياسية أو اجتماعية أو فكرية. وتحولت ألحان سيد درويش إلى سلاح لمناهضة الاحتلال الإنجليزى. والحاكم التركى. وتحولت إلى داعية لنهضة فكرية وثقافية تجارى مقالات المفكرين والمصلحين والسياسيين وعلى رأسهم الزعيمان مصطفى كامل وسعد زغلول. وأصبح للغناء العربى أظافر تقتحم به عش الدبابير والفاسدين والطغاة. مرات بكلمات مباشرة وبالرمز مرات.

ذهب الشاعر بديع خيرى مع صديقه شفيق المصرى ليشاهدا مسرحية «فيروز شاه» من ألحان سيد درويش لفرقة جورج أبيض. فتحقق من روعة ألحانها. فأسرع لتهنئة ملحنها بين فصول الرواية. وكان لقاء رائعا صنعته الصدفة وحدها. استقبله سيد درويش بالأحضان كما لو كانا على علاقة قديمة.

كشف سيد درويش لضيفه عن سر هذا التقارب. قال إنه اطلع على قصيدة نشرتها جريدة السيف السكندرية من تأليف بديع. فلحنها. وحققت شهرة واسعة فظلت تتردد فى المهرجانات. كأول أغنية تترجم. أواصل الحب وروابط التقدير بين شعبى وادى النيل مصر والسودان. يقول مطلعها:

دنجا دنجا دنجا دنجا دنجا دنجا
جالت لى هالتى أم أحمد كلمايه فى قبلايه

سرجوا الصندوق يا مهمد لكـــن مفتاحـــه مآيا

آلند يا شنجـه كريكرى

إنهـا صيحة سـودانية خالصة ينقصها صـدق التصوير بلغة أهل السـودان وبإيقاعاتهم ونغماتهم فتحولت إلى نشـيد مصرى سودانى شـعبى. وتحول المؤلف والملحن إلى صديقين دون أن يلتقيا إلا فى الإبداع الفنى. فلما التقيا فى المسرحى لم يفترقا.

قدم بديع وسيد درويش أغانى الطوائف فى المسرحيات. السقايين والسودانية والرشايدة والشـيالين والمجانين والحشاشين والتحفجية والشعراء والأروام والمراكبية والموظفين وأولاد الـذوات والوارثين والعمال والصنايعية والمغاربة وتجار الفحم والجزارين والحمارين والباعة والصعايدة والسيّاس والجرسونات والبويجية والعربجية.

أول مسـرحية لحنها سيد درويش لفرقة نجيب الريحانى هى «ولو» وكتب بديع ولحن الشيخ سيد منها «السقايين» ومطلعها:

يهـــون الله يعـــوض الله

ع السـقايين دول شـقيانين

متعـرييـــــن م الكـوبـانيـة

خواجاتها جونا.. حيطفشونا

ليه بيرازونا.. دى صنعة أبونا

متعبرونا يا خلايق

تمثل كلمات هذا الاسـتعراض طلقة ضد الاحتكار فى مصر وكشـف الاستغلال الأجنبى واغتصاب حقوق شـعبها. وهو معنى نسمعه كثيرًا فى اسـتعراضات الثنائى بديع والشيخ سيد. ومن أمثالها استعراض العمال ومطلعه:

الحلوه قامـت تعجن فى البدريه

والديك بيدن كوكو كوكو فى الفجريه

يللا بنا على بـاب الله يـا صنيعيـه

يجعـــل صباحـك صبـــاح

الخيـر يـا ســطى عطيـه

طلـع النهـار فتـاح يـا عليـم

والجيـــب مـافهـش ولا مليـــم
مين فى اليومين دول شاف تلطيم
زى الصنـايعيـــــة المظاليم
الصبـــــر أمـــــره طـــــال
واش بعـــــد وقـــف الحـــال
ياللـــــى معـــــاك المـال
برضـــه الفقـير لـــه رب كريـم

ومن الأعمال التى عالج سيد درويش وبديع خيرى فيها موضوع الاحتكار هذا الاستعراض:

مـــــا قلتلكـــــش إن الكـــــثـره لابـــد يـــوم تغلب الشـجاعه
وأديـــــك رأيـت كـــــلام الأمـرا طلـــع تمـــام ولافهش لواعـه
غـيرش اللى كان هـالـك أبدانـــا ومطلـــع النجيـــل على عنينا
إن محمـــــد يكـــــره حنـــــا ودخـل دول إيـــه بس ف دينا

أما استعراض «الموظفين» فيصور الشعور الوطنى العام الذى شمل جميع طوائف الشعب فى ثورة ١٩١٩ حين سـافر الزعيم سـعد زغلول وصحبه إلى مؤتمر فرساى لعرض القضية المصريـة فتجاهلهم الإنجليز وأرسـلوا إلى القاهرة اللورد ملنـر عله يجد على ضفاف النيل من يقبل التفاوض معه. وينتهى الاسـتعراض بشـكوى تقليدية من جانب الموظف عن قلة الدخل ووفرة العيال حيث يقول:

هـــز الهـــلال يـــا سيد كرامـــاتك لأجـل نعيد
يكفـــى اللـــى حصل كـــام يـــوم ووصـــل
يـــــــا زرع بصـــل هويت وهـو راق الحال
ورجعنـــــا للأشغـــال دا الموظـف منـــا مـش
وش خنـاقه ولا شومـه لـمـا تحمـــــر عينـه
واللا يقوم لـــه قـــومـه حـد الله ما بينـا وبينـك

غير حب الوطن يا حكومه

ويقول فى نهاية الاستعراض:

فـى الشـغل قـل يـا سـيدنا البيـه
ثمـانيـه مـــا يجيبـــوا رجليـه
والغلـب اللى شـاربينه
يا ريت العـالم عارفينه
دى ماهيـــه إيـــه
دول خمسـة جنيـــه
من خمسـة منـــه تروح
وبقيتـه نقـــول أبوح
د بسـلامتها السـت بتاعتـى مـا تتوصاشـى
ولا تولدليش فى البطن إلا اثنين كدا ع الماشـى
وييجى الجزار والخضرى والبقال يلعنوا أبو خاشى

كان بديـع خيرى مركزا للإمداد الشـعرى والزجلى لألحان سـيد درويش، وكان هنـاك مراكز أخرى، فاللحن المتوهج الصادق كان كفيلا بجذب الشـعراء والزجالين إليه، وكان أمين صدقى من كتّاب المسـرحيات، كتب مسرحية «الانتخابات: وفيها اسـتعراض :بنات اليوم» عـن أمانة الفتاة وكفاءتها وجدارتهـا بمكانة مرموقة يقول مطلعه:

دا وقتك دا يومـك يا بنت اليوم
قومى اصحى من نومك.. بزياداك نوم
وطالبى بحقوقك واخلصى م اللوم
ليـه ماتكونشـى زى الغـربيـه
وتجاهـد فـى حياتنـــا بحُريه
شطاره شـاطـرين قـداره قادرين
مين فى دردحتنا وخفتنا دى مين

سمع سـيد درويش ذات مرة عند مروره بمنطقة الزهـار بحى بولاق صعيديًا ينادى على البلح الذى يبيعه، بنداء طريف لفت سمعه وأوحى له بشكل لحنى. طلب من بديع خيرى

أن يكتب مقطوعة زجلية على لسان بائع صعيدى تصلح لنغمات اللحن الذى حفظه من بائع البلح. وكتب بديع الاستعراض المطلوب ضمن أوبريت بعنوان: «قولوله» ويقول مطلعه:

مليحـــه جوى الجلـــل الجناوى
رخيصه جـــوى الجلل الجناوى
جـــرب حدانـــا وخـــد جلتـــين
الدنيـــا مالهـــا يـــا زعبـــلاوى
شـــجلبوا حالهـــا ويـــن المداوى
شـــوفوا البـــلاوى
والبنـــك نـــاوى
يرفـــع دعـــاوى
عشـــان يتـــاوى
فـــى فلوســـنا واحنـــا متجندلين

وكما فعل سيد درويش مع بائع البلح فعل مع بائع الطرشى. وكان قد سمع نداءه فى جزيرة بدران. حيث كان يسكن فى القاهرة.

ولم يكن سـيد درويش يصنع الألحان من أفواه الشـعب فقط، وإنما كان يسـتلهمها ثم يبنـى ألحانه التعبيرية السـاخرة. مع بسـاطة فكرته مما يؤكد عمـق انفعاله بالأحداث السياسية والاجتماعية وبطوائف الشعب المكافحة فى سبيل لقمة عيش شريفة.

نشـرت جريدة «الأفـكار» ١٩١٦ مقالاً بعنوان: كيف يباع الغـاز فى العاصمة، تصف مشـهد بيـع الغـاز بالتعريفة رغمًا عن تاجره، فلحن سـيد درويش نشـيد الغاز. ويقول مطلعه:

استعجبـــوا يـــــا فنديـــه مـــتر الغـــــاز بروبيـــه
ثمـــن المتر زمـــــان بصفيحـه واللـــى يطولـه اليـــوم بفضيحه
مأمـــور القســـم يدى نصيحة ماشـــيه قدامـــه دوريـــه

وترك لنا سيد درويش ثروة من الأناشيد وأعمال التغنى بمصر وأرضها وشعبها وقيمتها. تضمنت أعماله المسـرحية ١٧ نشيدًا يحيى فيها الجيش والشعب والقوى الوطنية. وبعيدًا عن مسرحياته لحن أربعة أناشيد منها «مارسيليز» مصر أو نشيدها القومى «بلادى بلادى..

لك حبى وفؤادى» وأناشيد «بنى مصر ومكانكموا تهيأ – ومصرنا وطنًا سعدنا أملنا – مصرنا وطنًا وحدته أملنا».

تحلى سيد درويش بالوعى الاجتماعى والوطنى وظهر فى أغان وأناشيد بسيطة جميلة وجديدة، جعلته واحدًا من أهم فرسان النهضة فى مصر فى أوائل القرن العشرين. أما أصالة ألحانه فقد ضمنت لها الخلود وتفاعل الأجيال بها جيلا وراء جيل.

والقيمة الموسيقية لسيد درويش تظهر فى ألحانه المسرحية فهى نقلة موسيقية كبيرة وتطور فى الشكل والقالب والأسلوب.

لحن سيد درويش ٢٨ مسرحية، تضمنت استعراضات الطوائف التى جعلت منه اجتماعيًا ومفكرًا وطنيًا، كما تضمنت الأناشيد التى تتغنى بالقيم الوطنية ولتحميس الشعب والتمسك بحب الوطن.

بدأت الحركة المسرحية فى مصر بعد انتصاف القرن التاسع عشر. ساعد على ذلك بناء الأوبرا المصرية ١٨٩٩. وسبقها بعام إنشاء المسرح الهزلى الفرنسى (الكوميدى فرانسين) فى مصر مما أفسح المجال لفرق الموسيقى والغناء والتمثيل الأوروبى آفاقا جديدة لتفد إلى مصر كل عام بعروضها الفنية المختلفة مما ساعد على أن يتعرف المصريون إلى الفنون الجديدة وتذوقهم لها وإن اقتصرت جماهير هذه العروض على طبقة الأغنياء والمثقفين فى مصر.

أراد يعقوب صنوع فى عام ١٨٦٩ أن يقيم مسرحا مصريا يعرض عليه مسرحيات عربية أعدت خصيصا له. بدأ تأليف مسرحيات قصيرة تتخللها مقطوعات سفرية ملحنة تلحينا شعبيا. واتجه فى أغلب مسرحياته إلى النوع الهزلى وقد مزج فيها بين العناصر المصرية والأوروبية. إلا إنه أثار حفيظة بعض المصريين بشأن بعض الموضوعات التى تسخر من بعض التقاليد المصرية مما أدى إلى إغلاق المسرح بأمر الخديو بعد عامين من إنشائه.

وجاءت فرقة سليم خليل النقاش من سوريا وتبعتها فرق أخرى من سوريا ولبنان مما صنع نهضة مسرحية فى مصر وقامت بينهم منافسة فى تقديم روايات مؤلفة وأخرى مترجمة. وكان طبيعيا أن تبدأ الفرق المصرية فى الظهور نتيجة لذلك. وقد ظهرت اعتبارا من أول القرن العشرين.

صعد سلامة حجازى بالتخت على المسرح بالمعنى. فوضع قصائد اشتهر بغنائها خلال أحداث الرواية. وكانت بعض المسرحيات المصرية قبل ذلك قد نشرت بين الأحداث المسرحية أغنيات فولكلورية أو شعبية.

تكونت فرق مصرية كثيرة منها فرقة جورج أبيض التى تناولت موضوعات مصرية وأخرى مترجمة ثم اندمجت مع فرقة سلامة حجازى وقدمت مسرحيات منها «فى سبيل الوطن» و «الحاكم بأمر الله» و «قلب امرأة».

لحن سيد درويش فى عام ١٩١٨ مسرحيات (ولو - الهوارى - ده كله من ده) وفى عام ١٩١٩ لحن ٧ مسرحيات هى: (إش - عقبال عندكم - أحلاهم - ولسه - رن - قولوله - مرحب - قلنا له)، ولحن عام ١٩٢٠، ٤ مسرحيات هى: (راحت عليك - العشرة الطيبة - كلها يومين - فشر). ولحن ١٩٢١، ٥ مسرحيات هى: (هدى - شهرزاد - اللى فيهم - البروكة - عبد الرحمن الناصر)، ولحن فى عام ١٩٢٣ وهو العام الذى توفى فيه سيد درويش لحن (الهلال - البربرى فى الجيش - الدرة اليتيمة - الانتخابات - كليوباترا ومارك أنطونيو التى أكمل ألحانها وقام ببطولتها محمد عبد الوهاب أمام منيرة المهدية).

ظهرت فى مصر من خلال مسرحيات سيد درويش قوالب غنائية جديدة. مثل: المونولوج، والديالوج والترياوج. والغناء الجماعى.

من الديالوجات التى لحنها: (آدى سبرتو الفابريكه - آدينى أهه جيتك بدرى - السر دا هنا هو فى قلبى - الله على شكلك وحلاوتك - آن الآوان يا حلوة آن - أهل البلد همه اللى حكولى - بزيادة بقى جننتينى - حرام عليك والله يا قلبى - طال شوقى لحبيبى مصطفى - على قد الليل ما يطول - غير الزواج فيه هنا تانى - لما أشوف وش الحبيب - مين زيى مين أسعد منى - هوه بعينه وبمناخيره - يابو الكشاكش ياما لسه نشوف - يا حبيبى يا حياتى - باللى جفاك سبب كربى - يا نيل سلام يا أنس الفؤاد).

أما المونولوجات التى لحنها سيد درويش فى مسرحياته فهى:

(اشمعنى يا نخ الكوكايين كخ - الناس وقعتها خفيفة - أنا رأيت روحى فى بستان - أنا ميساريم - أنس وجمال وخلو بال - إن الخيانة وإن الذنب - بكره يا بنتى تخشى دنيا - تركت مصر بلادى - شرفك لو ضاع منك وإتهان - كأن الشيطان بيعزم يوم - كم روعتنى سيوف - لفيت أنا كل الدنيا - مصطفاكى بزياداكى - نادرة وحصلت ويايا - يا سلام ماكنتش أفهم - يا فرحتى بجواب محبوبى - ياليل سمير كل العشاق - يا نسر طير وافرد الجناحين - يا واصفين آدى القناطر الخيرية).

يشكل الغناء البوليفونى عنصرا أساسيا فى الغناء الأوروبى وهو عنصر لم يهمله سيد درويش فى ألحانه المسرحية. إنه الأداء المتزامن فى خطين أو ثلاثة. وهو ليس غريبا على

الفطـرة العربية وموجود فى الفولكلور. وفى مصر كانت مئذنة مسـجد الشـيخ صالح أبى الحديد تبدأ الأذان فيتبعها المؤذنون على مآذن المسـاجد المجاورة ملتزمين بالمقام الموسيقى الذى اختاره مؤذن مسـجد الشـيخ صالح. بينما يختلف كل أذان حسب طبقة صوت كل مـؤذن فيصل الأذان إلى الناس من مقام واحد وأصوات متعددة ومنوعة. وهذا أحد أشـكال الغناء البوليفونى.

واعتـاد المبتهـل أو المنشـد أن يميز صوته عن صـوت البطانة فى الغناء الدينى الشـعبى والابتهـالات. فيغنى مـن طبقة مرتفعة عن طبقاتهم التى يؤدون منها ويشـكل ذلك شـكلاً آخـر للغناء الفطرى المصرى المقام على الغنـاء البوليفونى، وكذلك فإن آلة الأورغول بصوتيها المتزامنين، حيث يخرج منها العازف صوتين فى آن واحد شـكلان، من أشـكال الموسـيقى البوليفونية.

تأثر سيد درويش بالموسيقى الأوروبية فى دار الأوبرا المصرية. ومع الكوميدى فرانسيز. وقدم أكثر من لحن ظهر فيها. تعود التصويت فى أوبريت «شهرزاد». وبالتحديد فى لحن «وقت طبول الحرب يا خياله».

فبعد أن سـلمت الخاتون شهرزاد سـيف والدها إلى البطل المصرى زعبلة الذى أعجبت بـه وأمرت بأن يتولى قيادة جيشـها. أعلن الثلاثى الذى يمثـل العداء للقائد الجديد بأداء جماعى بجملة:

كلام فـى كلام.. منـام فى منام
مـش راح ينفـع ولا يتمتـع
أبـــدا.. أبـدا إن شـــاء الله

ويرد الشعب عليهم:

راح يتمتـع.. بكـره نسـمع
غصـبن عنكـم إن شـاء الله

ويختلط صوت الأعداء مع صوت الشـعب. كلٌ فى مواله.. بصوت القائد زعبلة يحمس جنوده، وينشد فى ذات الوقت:

دوسـوا الأعادى بالقدم
ما احناش ف وقت انتظار

واملـوا نفوســكم بالهمم
واملوا السما والأرض نار
يا عســكرى اللى انهزم
يقــع فى عــار وأى عار
وإن داس على النفس وهجم
ربــك كفيـــل بالانتصار

وينتهى الفصل الأول للمســرحية بمشاركة الخطوط الغنائية الثلاثة كتجربة أولى فى الغناء العربى.

وتضمنت أوبريت شــهرزاد ألحانا أخرى عولجت بوليفونيا منها «أحسن جيوش فى الأمم جيوشــنا» فى أوبريت «شهرزاد»، «آن الأوان يا حلوة آن والسعد كان مستنى يومك»، «ياللى تصلى على النبى تكســب» فى أوبريت «العشــرة الطيبة» ولحن «يا حلوة مين إنتى ياروحى» فى مســرحية «راحت عليك» قد فقدت الخطوط الموسيقية المضافة ربما لعدم قدرة المؤدين على التنفيذ أو لضياع النوت الموسيقية الخاصة بها.

أدرك ســيد درويش أن ألحان الأوبريت يجب أن تشــمل فقرات لحنية منســجمة ومكونة من مســافات موسيقية ثالثة ورابعة وخامسة وسادسة وأوكتاف، مما يساعد على تطبيق علوم الهارمونى، على أن تأتى فى نفس الوقت مستساغة من جانب المستمع العربى.

كان لحن «عشان ما نعلا ونعلا ونعلا.. لازم نطاطى نطاطى نطاطى»، هو الشكل النموذجى للتركيب الموســيقى للجملــة المكونة من درجات ثالثة وخامســة وأوكتاف. أمــا من الناحية التعبيرية فيشكل نموذجا ومثالا فى تصوير معانى الكلمات من الارتفاع بالقفز (نعلا ونعلا) إلى الانخفاض بالقفز أيضا فى (نطاطى نطاطى).

حاول ســيد درويش أن يســتخدم الغناء البيوليفونى فى تلحين أدواره على رغم أنه قالب للغناء التقليدى هدفه التطريب المعتاد. فاستعمل خطين موسيقيين متزامنين مختلفين فى النوت الموسيقية، وذلك فى المقطع الخاص بالآهات المسمى (الهنك) فى دور «فى شرع مين».

وأدرك سيد درويش احتياجه لفرقة موسيقية كبيرة تختلف عن التخت الذى كان مستخدمًا فــى عصره. وذلــك من أجل التعبير الجيد والمصاحبة الموســيقية المطلوبة لألحانه التعبيرية. فكون فرقة موســيقية كبيرة متكاملة تعتبر ثورة على شــكل التخت. كما اتفق مع المستشــرق

.مسيو كاسيو ديمترى» على قيادتها مع عمل التوزيع الأوركسترالى المطلوب لها. كما راعى أن تكون المقامات المستخدمة فى التلحين كلها بعيدة عن المقامات التى تحتوى على ثلاثة أرباع المقام. رأى أن تكون من المقامات «الديتاتونية».

إن عبقرية سيد درويش يجب أن تكون حقا لكل الأجيال. واجب أن يتعرف إلى إبداعاته كل المصريين والعرب. فهو مجدد موسيقى ومؤسس موسيقى عربية صالحة للتعامل كوسيلة للتعبير، وإذا تكرر عرض أعماله المسرحية. كما يتكرر إذاعة طقاطيقه وأدواره وموشحاته. فسوف تدرك الأجيال مدى عبقرية هذا الفنان الخالد. وسوف تمثل أعماله ثروة لحنية كبرى تدعم مواهبنا الشابة فى مجال التلحين بكل ألوانه.

من حسن حظى أن أنتمى لجيل أتيحت له الفرصة للاطلاع على ثروة سيد درويش اللحنية ليس من خلال دراستها فى معهد الموسيقى العربية. فلم يكن يدرس من أعماله الكثير فى المعهد. إنما من خلال ممارستها فى جامعة القاهرة فى فرقة موسيقية وغنائية نصف محترفة. ومخرجين نجوم.

نشرت مجلة الكواكب فى عددها رقم ٩٥٦ الصادر بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٩٦٩ التحقيق التالى بقلم الكاتبة الصحفية عائشة صالح:

جامعة تعيد المسرح الغنائى للحياة

تكونت فى جامعة القاهرة فرقة للفنون الاستعراضية، نجحت بدرجة (ممتاز) فى تقديم ثلاث مسرحيات غنائية من تراثنا الموسيقى فى حدود ميزانيتها الضئيلة. وبذلك تكون جامعة القاهرة قد وصلت إلى المستوى الفنى لجامعات أوروبا وأمريكا حيث تقدم العلم والفن معًا للمجتمع. فالفرق الجامعية تعد رائدة فى مجال الفنون أيضًا.. فهى تنقل العمل الفنى إلى النطاق الأكاديمى.

أحدث ما قدمته فرقة الجامعة هو أوبريت «شهرزاد» من الأوبريتات الخالدة التى لحنها سيد درويش وكتبها بيرم التونسى. وبرغم أن فرقًا كبيرة لم تفكر فى تقديم هذا العمل الخالد.

قصة «الأوبريت» فى فكرتها الأساسية من حواديت ألف ليلة وليلة. لكنها تريد أن تقول شيئًا. إن «شهرزاد» أميرة على دولة كبيرة. تتعرض للخطر فتستنجد بكبار رجالها.

لكنه جندى من أبناء الشعب يستطيع أن يقود الجيش ليحقق الانتصار ويظل الجندى يلقى التقديـر والترقيات حتى يصبح قائدًا عامًا للجيوش، ويربط الحب بينه وبين فتاة مصرية، مما يجعل شهرزاد تغضب عليه لأنها قد أحبته.

تتآمر حاشـية القصر على ابن الشـعب. لكنه يجتاز الآلام والمحن فى شجاعة. وأخيرًا ترضى عنه شهرزاد وتعيده إلى مكانته. أما هى فكان دورها مع شهريار.

تعرض القصة من خلال ألحان ولوحات اسـتعراضية وغنائية قام بتجسيد أدوارها فايزة عبد العال فى دور شهرزاد ومحمد قابيل فى دور الجندى ابن الشعب ومنى زكريا فى دور الفلاحـة حبيبـة الجندى وعبد المنعم طنطاوى فى دور القائد التركى والمنتصر بالله فى دور البرنس قمع الدولة وسـيد خضر فى دور الوزير الشـامى ومحمد متولى فى دور المأذون. أما الإخراج فللنجم الإخراج الاستعراضى الفنان الكبير فؤاد الجزايرلى.

حضرت هذا العرض فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة مع ثلاثة آلاف متفرج يتابعون فى حماس وإعجاب.

المسرح الغنائى

إن قيمة ما تقدمه فرقة جامعة القاهرة لحياتنا الفنية تبدو فى مكانها الصحيح إذا عرفنا خطوات المسرح الغنائى فى بلادنا حتى الآن.

إن المسـرح الغنائـى ظاهـرة تدل على فن راق يشـمل أكثر من لون مـن الفنون كالغناء والرقص والتمثيل والموسيقى. وقد طالب النقاد كثيرًا بضرورة الاهتمام بهذا اللون من الفن. والحقيقة أن الافتقار إلى هذا اللون يرجع إلى الافتقار إلى الثقافة الموسـيقية. فعدد العارفين قليل والموسيقيون الدارسون فى ندرة ولهذا نجد ذوق الجماهير أصبح حجة لكل فن فاشل بمنطق «الجمهور عايز كده».

لكن المسـرح الغنائـى كان قد وصل إلى درجة كبيرة من النضج على يد سـيد درويش، وهذا لا يعنى أن محاولات لم تبذل فى هذا المجال قبل سـيد درويش فهناك على الكسـار وسلامة حجازى وزكريا أحمد وغيرهم وقد بذلوا جهدهم حسب مفهوم كل منهم لفن المسرح الغنائى.

مسرح سيد درويش

يقول فؤاد الجزايرلى مخرج أعمال الفرقة: كان التخت أيام سيد درويش هو مجال الأغنية. وكانت الموسيقى فى نظر الناس لا هدف لها سوى التطريب. فجاء سيد درويش ولحن أوبريتات، فقيرة الصورة تمامًا. إذ إنه لم يلحن بتكنيك الأغنية الفردية. ونقل الموسيقى من مرحلة التخت إلى مرحلة الأوركسترا. وعلى رغم خطورة هذه النقلة إلا إنها لم تفقدها العذوبة والميلودية والروح المحلية. ولهذا ظلت موسيقى سيد درويش لها طابعها وشخصيتها المصرية. وقد ظهرت قدرته فى التعبير عن المعانى وليس التطريب.

وقد اتسمت ألحان سيد درويش بالحركة والحيوية كما يقول مخرج الأوبريت. كذلك لم يستخدم سيد درويش «الربع تون» مما يؤكد أنه كان يدرك الفرق بين ألحان الأوبريت وألحان الأغانى الفردية. بل أكثر من ذلك أنه استخدم الهارمونى فى بعض أعماله المسرحية. ثم تدهور المسرح الغنائى وتراجع بعد وفاة سيد درويش.

أما الدكتور عبد الحى الليثى الأستاذ بكلية الزراعة والمسئول عن النشاط الفنى بجامعة القاهرة فيقول:

السبب فى ذلك يرجع إلى الانتفاضة الفكرية التى أصابت البلاد عقب تناحر الأحزاب والابتعاد عن فلسفة ثورة ١٩١٩ وتجاهلها أمام المصالح الحزبية. وفى الواقع توقعنا بعد ثورة ١٩٥٢ أن يعود المسرح الغنائى إلى الوجود باعتباره من فنون الاتصال الجماعى: وهو أصلح الفنون لمجتمع اشتراكى بعد النهضة الفكرية التى ارتبطت بثورة ١٩٥٢.

بعث المسرح الغنائى

وفى الواقع إن بعث المسرح الغنائى يتطلب تكوين أجيال مثقفة موسيقيًا وإعادة التراث القديم والاهتداء به. فالفنان امتداد للفنان ولا جديد بلا قديم. وهذا ما أدركته جامعة القاهرة لإحساسها بالمسئولية التاريخية أمام الأجيال على حد تعبير الدكتور عبد الحى الليثى الذى فكر فى تحمل جامعة القاهرة - ككل الجامعات فى الدول المتقدمة - عبء بعث المسرح الغنائى من جديد ويحكى حكايته مع فن الأوبريت من أولها.

العشرة الطيبة

كان العمل الأول للجامعة هو أوبريت «العشـرة الطيبة» من ألحان سـيد درويش وإخراج فيصـل عـزب وبطولة محمد قابيل. قدمـت الفرقة أكثر من عشـرين ليلة عرض لجماهير محافظات مصر. وكان نجاح هذا الأوبريت جواز مرور لجميع الأعمال الفنية الجديدة.

على بابا

فـي مهرجان الجامعة لعام ١٩٦٩ قدمت كليـة الزراعة أوبريت «على بابا» قصة توفيق الحكيـم. إخراج فيصل عزب ألحان زكريا أحمـد بطولة محمد قابيل وفاز بالجائزة الأولى للأعمال الاستعراضية فى المهرجان. كما فاز بطل الأوبريت بجائزة «مطرب الجامعة الأول» وهى جائزة تعطى لأول مرة فى تاريخ الجامعات المصرية بعد أن كانت تعطى لفتى الجامعة الأول فى التمثيل.

شهرزاد

وأحدث أعمال الفرقة أوبريت «شهرزاد» ألحان سيد درويش، إخراج فؤاد الجزايرلى بطولة محمد قابيل. وكالعادة تم تقديمه فى عدة محافظات مصرية ولقى نفس النجاح الذى سـبق أن لقيه أوبريت «العشـرة الطيبة» وكان إحساس الجماهير هذه المرة وهى تشاهد الأوبريت. أنه العمل المناسب فى الظروف المناسبة. فالأوبريت وطنى من الدرجة الأولى والجماهير بعد نكسة ١٩٦٧ مازالت تبحث عن العمل الفنى الحافز للهمم والدافع إلى المعركة.

وسـيد درويش كعادته فنان متصل بالجماهير، كان يتسـتر وراء شخصيات تركية وسـناجق ومماليـك ليقول ما لا يسـتطيع أن يقولـه علنا فى عصره لضغط سـلطات الاحتلال والحكومات المتواطئة معها. لذلك تجده قد ملأ الأوبريت بالأغانى الحماسية مثل (أنا المصرى كريم العنصرين - أحسـن جيوش فى الأمم جيوشـنا - دقت طبول الحرب يا خيالة).

ومـن حيث الإخراج فقد اسـتطاع فؤاد الجزايرلى أن يقـدم عملا أقرب إلى فن الكوميديا الموسيقية منه إلى الأوبريت.

مطرب الأوبريت

ويحتاج المسرح الغنائى إلى نوعية خاصة من المواهب الغنائية. فلابد أن يتسم الصوت بالقوة والوضوح. وأن يكون صاحبه دارسًا للموسيقى بالإضافة إلى ضرورة إجادته لفن التمثيل. وقد توافرت هذه الشروط لدى مطرب الأوبريت فى الجامعة محمد قابيل.

وكل من استمع إلى محمد قابيل يشهد لموهبته الأصيلة - لكن ما الذى جعله لا يظهر الآن إلا من خلال أوبريتات فرقة الجامعة؟ يجيب قابيل بقوله: الإذاعة فى رأيى هى آخر هدف للمطرب. فهو أساسا يجب أن يبدأ من الجمهور وأنا ذهبت إلى الناس فى المحافظات مع الفرقة. وكمان ما أحبش أكون من المتطفلين على الناس. لازم أكون قابلتهم فى المسرح قبل ما أدخل بيوتهم.

وفى أعقاب نكسة يونية جاء وفد من طلبة الصحافة بجامعة موسكو لزيارة القاهرة. وفى نادى خريجى الصحافة استمعوا إلى قَسَم الثورة. وهو نشيد لحنه وأداه محمد قابيل وهو من تأليف الشاعر الفلسطينى سميح القاسم. وقالوا إن هذا النشيد دليل واضح على إصرار الشعب المصرى على الصمود فى معركة المصير. وكان يلقى نشيده بحماس فى حفلات الجامعة.

ويقول محمد قابيل عن تجربته مع المسرح الغنائى: إن النجاح الذى لقيته أعمال سيد درويش عندما قدمناها لجماهير المحافظات حفزنى لكى ألحن بعض الأوبريتات. وانتهيت فعلاً من تلحين أوبريت مسرحى بعنوان «أكتوبر يا شهر الحصاد» وأوبريت تليفزيونى بعنوان «مذكرات الأسطى عوضين» ويخرجه وسيم طبارة.

وأخيرًا فإن فرقة جامعة القاهرة، ظاهرة جديدة لفتت الأنظار. وعلى المسئولين فى الجامعة أن يهتموا بها حتى تحافظ على النجاح دائمًا وبدرجة (ممتاز).

□□□

ونشر الأهرام يوم ٢٥ أبريل ١٩٧٠ على صفحته الأخيرة هذا التقرير بقلم الكاتب الصحفى محمد صالح:

جامعة القاهرة وأسبوعها المسرحى

أمس: بدأت الفرق المسرحية بجامعة القاهرة مهرجانا لمسرحيات أدب المقاومة على مسرح نجيب الريحانى بالقاهرة يستمر أسبوعا. وفى الأسبوع الماضى تبارت ٩ كليات للزراعة فى جامعاتنا على كأس الفنون الشعبية والتمثيلية وذلك ضمن مسابقات مهرجان الدورة الزراعية التى أقيمت فى جامعة الإسكندرية هذا العام وفازت كلية الزراعة جامعة القاهرة بالكأس.

الفرقة التى تستحق وقفة عندها - من واقع انتصاراتها الفنية الغنائية هى منتخب الجامعة. الذى يحمل اسم الفرقة الاستعراضية الغنائية بجامعة القاهرة والتى فازت بكأس الجامعات مرتين متتاليتين. قبل أن تحصل على الكأس فى الإسكندرية الأسبوع الماضى.

الفرقة تكونت منذ سنتين لكنها على رغم العمر القصير، استطاعت أن تقف على أقدامها وتقدم بنجاح - على رغم قلة الإمكانيات غير الفنية - تراثنا القديم فى المسرح الغنائى فتحييه. قدمت أوبريتات سيد درويش «العشرة الطيبة» و «شهرزاد». كما قدمت «على بابا» تأليف توفيق الحكيم، ألحان زكريا أحمد، و «البيرق النبوى». ألحان أحمد صدقى. الفرقة بذلك تكون حاملة لواء إحياء الأوبريت المصرية لافتة أنظار المتفرجين للفن الأصيل إلى إمكان وضع أوبريتات مصرية معاصرة، ضاربة المثل بموسيقار مطلع القرن سيد درويش الذى كان متطور الفهم عندما خلّص ألحان الأوبريت من نغمة الـ ٤/١ تون التى يرجع إليها جانب كبير من التطريب فى موسيقانا الشرقية. فاستطاع بموسيقاه العذبة الحلوة التعبير عن المعانى مما نجده واضحا فى «أحسن جيوش فى العالم جيوشنا» و«أنا المصرى».

ولأن الفرقة تستعد لجولة فى المحافظات من منتصف يونيه القادم، وقبلها تحيى ٦ حفلات فى القاهرة. وكأنها تبشر بخير. فإنها تحتاج إلى رعاية من وزارتى الثقافة والتعليم العالى حتى لا تبدو ديكورات العروض والأزياء بهذا المستوى. خاصة وأن الفرقة تعيش على اعتماد سنوى قدره ٢٠٠ جنيه من ميزانية اللجنة الفنية لاتحاد جامعة القاهرة.

إنها فرقة تستطيع بالتشجيع الذى تقدمه أن تدفع بها إلى مصاف فرق لجامعات أوروبية زارنا بعضها.

وعندها ستكون الفرقة التى ترفع فى القاهرة لواء إحياء تراثنا الموسيقى المسرحى. كما ترفعه فى الثغر. الفرقة المحترفة لمسرح سيد درويش.

نشرت جريدة المساء القاهرية يوم ١٢ ديسمبر ١٩٧١ هذا التقرير:

المسرح الجامعى فى جبهة القتال

«المسرح الجامعى فى كل بلد هو طليعة المسرح العام فيها. والذى نحتاجه فى بلدنا هو المسرح الغنائى. وأن تقوم الجامعة وتواصل رسالتها للمسرح الغنائى هو دور طبيعى أن نقوم بدور طليعى».

بهذه الكلمات تحدث الدكتور عبد الحى الليثى مؤسس المسرح الاستعراضى الغنائى بجامعة القاهرة عندما التقيت به أثناء تقديم العرض رقم ٣٠ لأوبريت «العشرة الطيبة» على مسرح البالون والذى قام ببطولته الفنان الشاب محمد قابيل الملقب بمطرب الجامعة الأول منذ عام ١٩٦٨.

والجديد فى الحركة المسرحية حقا تلك الوثبة التى تواصلها الجامعة فى طريق احتلال ريادة النهضة المسرحية. منذ ست سنوات قدمت الجامعة مهرجانا سنويا للاحتفال بأعمال توفيق الحكيم قدمت فيها أوبريت طواه النسيان هو «على بابا» قام ببطولته محمد قابيل أيضا. وبعد عدوان يونيه ١٩٦٧ تقدمت الجامعة بمهرجان ناجح لأعمال أدب المقاومة فى العالم، على أن الظاهرة الملفتة هى تقديم الجامعة لأعمال سيد درويش والتى عرض منها «شهرزاد» لأبطالنا على جبهة القنال. ونالوا الإعجاب الشديد من جنودنا البواسل. كما استطاع الفنانون الشبان أن يكسبوا ثقة النقاد والمتخصصين فى تراث سيد درويش مثل جمعية أصدقاء سيد درويش التى يرأسها محمد على حماد ويحرص دائمًا على حضور جميع عروض هذه الفرقة.

وتتميز الفرقة الاستعراضية الجامعية بقيامها على أسلوب علمى جاد - والكلام لقابيل مطرب الفرقة - والدليل على نجاحها. استمرارها طوال خمس سنوات فى تقديم التراث، الأمر الذى يؤكد أنها تفتح أبواب المستقبل للمسرح الغنائى.

ويقول مؤسس المسرح الغنائى الجامعى الدكتور عبد الحى الليثى: إن الإعداد يجرى لتقديم رائعة سيد درويش الثالثة «الباروكة» وهى المعروفة بصعوبة ألحانها لاتجاه سيد

درويش فيها إلى فن الأوبرا. لكن موهبة الشاب محمد قابيل الاستعراضية والأوبرالية تؤكد أننا سوف نستمر فى نجاحنا لتدعيم المسرح الغنائى. وهو الأمر الذى أكده محمد على حماد من واقع رئاسته لجمعية أصدقاء سيد درويش. إنه يستطيع أن يقول إنه اكتشف فى المطرب محمد قابيل نجمًا جديدًا فى عالم اللحن والطرب. وقال إنه استمع لقابيل وهو يؤدى دور البطولة الغنائية فى مسرحية «شهرزاد» لسيد درويش. وإنه يستطيع أن يقول إنه ترجم سيد درويش بمنتهى الصدق والأمانة والإحساس.

وفى الواقع إن بعث المسرح الغنائى يتطلب تكوين أجيال مثقفة موسيقية. وإعادة التراث القديم والاهتداء به. وهذا ما أدركته جامعة القاهرة لإحساسها بالمسئولية التاريخية أمام الأجيال. على حد تعبير الدكتور عبد الحى الليثى الذى فكر فى أن تتحمل جامعة القاهرة ككل الجامعات فى الدول المتقدمة عبء بعث المسرح الغنائى من جديد.

ويضيف عن خطة المسرح الغنائى أن الفرقة الصغيرة ستواصل تقديم أكثر من عشرين عرضًا لجماهير الفلاحين والعمال فى المحافظات وللأبطال والجنود على خط النار إيمانًا بالدور الجديد للجامعة فى الالتحام بالمجتمع.

□□□

وفى صيف ١٩٩٧ قدم قطاع الفنون الاستعراضية والغنائية أوبريت «الباروكة» لسيد درويش على مسرح محمد عبد الوهاب على كورنيش الإسكندرية. وهرولت إلى هناك لأشاهد وأكتب المقال التالى:

باروكة فى عز الحر

□ أعراض الصيف المسرحية: المجنون. واللى بياكل ستاكوزا - واللى عامل قطة واللى لابس كاب - وبتاع المحمول. واللى بيبيع لمون. والباللو والعسل والبصل. وفى وسط كل ذلك تعلن الفرقة الغنائية الاستعراضية عن «الباروكة» لسيد درويش.

□ وأعظم ما عند سيد درويش هو المسرح. وأجمل مسرحياته لحنا «العشرة الطيبة». «شهرزاد». «الباروكة». والأخيرة خلاصة تحصيله فى لغة المسرح الأوروبى. مع موهبته غير العادية التى تصل لدرجة العبقرية. «الباروكة» من أندر أعماله. فهى منذ رحيله لا حس ولا خبر. فكلنا نعرف «العشرة الطيبة» و«شهرزاد» وبعضنا

يعرف «راحت عليك» وبقية مسرحياته الثمانية والعشرين. نسمع عن «الباروكة» ولم نتشرف بسماع ألحانها. ولما استمعت إليها بمصاحبة الدكتور عبد الحى الليثى أستاذ البكتيريا بزراعة القاهرة من منزل الناقد محمد على حماد - وكان رئيسا لجمعية سيد درويش- لم أستوعبها بسهولة من زحام الخطوط الموسيقية فى التوزيع الذى سجلت به.

- ولذلك أقدر تماما المجهود العظيم الذى قام به المخرج أشرف النعمانى فى الحصول على النوت الموسيقية للباروكة ثم تقديمها فى قالب درامى جديد وهو ما سبق أن فعله المخرج الكبير فؤاد الجزايرلى فى أوبريت «شهرزاد» على المسرح. أوبريت «العشرة الطيبة» فى التليفزيون. وحاول النعمانى تقديم العرض من خلال مسرح الهناجر التابع لدار الأوبرا. ثم الخطوة الأكثر جرأة بتقديمه على مسرح محمد عبد الوهاب الصيفى بالإسكندرية.
- «الباروكة» فى عز الصيف مغامرة فنية كبرى، وعلى رغم أن المسرح يفتخر بذلك وهو توازن مطلوب بتقديم عروض لها قيمة مثل الباروكة، مقابل عشرات الأعمال التجارية. فإن سيد درويش فى مسرحه الغنائى يحتاج إلى مناخ آخر يضمن له الاهتمام الجماهيرى والإيقاع والمشاهدة المركزة المتأنية. وكنت أتمنى أن تعرض «الباروكة» على مسرح سيد درويش بالإسكندرية شتاء. فهى ليست مادة للمصيفين. ولا هى برنامج ترفيه، إنما تحليق ومتعة حسية وذهنية. بالإضافة إلى كونها من ألمع المحطات الفنية فى تاريخ المسرح الغنائى المصرى. ومازال الأمل موجودًا فى موسم الشتاء. فلتعرض على مسرح الجمهورية بالقاهرة أو مسرح سيد درويش بالإسكندرية.
- وفى كلمة المخرج أشرف النعمانى فى نشرة المسرحيات، إشادة بالمخرج الرائد فؤاد الجزايرلى. صاحب البصمة الواضحة فى مسرحنا الغنائى والاستعراضى. لذلك فقد آمن بأن النص الذى تم عرضه عام ١٩٢١. لا يصلح فى مفارقاته وحواره عام ١٩٩٧. فعهد إلى الأديب علاء عبد النعيم بإعادة كتابته. كما فعل الجزايرى فى «شهرزاد» و«العشرة الطيبة» ما جعلها تحتوى على النصوص الغنائية بأكثر مباشرة وبساطة وكذلك فعل علاء فى نص الباروكة.
- وفن الأوبريت بصفة عامة، يعتمد على قصة بسيطة فيها من الخيال أكثر من الواقع، ومع ذلك فقد جاءت أحداث مسرحيتى سيد درويش «العشرة الطيبة»

و «شـهرزاد» أقـرب إلى «المصرية». أما أحداث «الباروكة» فهـى أبعد ما تكون عن المصرية. فأسماء أبطالها أجنبية وهى: روكو. كلارك. بيبو. بيتينا. فرتى. فيامتا. لوران؛ وغيرها.

- من ميزات مسـرح سـيد درويش أن ألحانه قابلة للتوزيع الموسيقى فى عرف الفرق بين ألحان المسـرح والألحان التقليدية، لذلك قدمت «العشـرة الطيبة» فى الإذاعة بتوزيـع موسـيقى لعبد النعيم علـى وأعاد توزيعها عزيز الشـوان عندما أخرجها مجدى مجاهد وعرضها على مسـرح البالون. ووزع محمد حسـن الشجاعى ألحان «شـهرزاد». أما «الباروكة» فقد قدمت على مسـرح محمـد عبد الوهاب بمصاحبة «تخت» كبير شـرقى يتضمن آلات العود والقانـون والناى!! مع إن الباروكة هى الأنسـب للتوزيع الموسـيقى الكبير من «العشرة الطيبة» و «شـهزاد» لمناخها غير المصرى، وألحانها التى عولجت حسب الغناء البوليفونى منذ عهد تلحينها.
- وربما يرجع الشـكل الموسـيقى الحالى للباروكة إلى أن عرضها بدأ فى مسرح بسيط وتجريبى هو الهناجر. أما العرض فى مسـرح محمد عبد الوهاب المفتوح فقد أضاع صوت الكورال وأبعد عزف الفرقة عن آذان الممثلين والمطربين.
- محمـد ثروت غنى «الباروكـة» بصوت قوى ومعبر وحضـور تمثيلى واضح. ومها البدرى اكتشاف فى مجال المسرح الغنائى، وحمدى أحمد وجمال إسماعيل تحمّلا مسـئولية الترطيب والترفيه مع رسم خطوط الحدوتة تمثيلاً وغناء. وديكور محمود سامى، وملابس نعمة عجمى من العناصر الناجحة فى العرض.
- بارك الله فيمن أعاد كلمة «الغنائية» إلى اسم الفرقة الاستعراضية، وبارك الله فيمن فكر فى «الباروكة» وفى كل من شارك فى تقديمها.

□□□

لم يلـق سـيد درويش منا التكريم الذى يسـتحقه وكان يجـب ألا يقل عما يلاقيه الموسيقار شتراوس فى فيينا، وموتسارت فى سالزبورج، وبيتهوفن فى ألمانيا والنمسا.

وأجمـل صور التكريـم هو عرض أعمال الفنـان لتتعرف إليه الأجيـال، ومع ذلك فالإذاعة المصرية لا تذيع أعماله إلا قليل القليل، والتليفزيون لا يعرض منها شيئاً. أما المسرح فقد عرض «العشرة الطيبة» ثم «الباروكة» واكتفى بذلك.

إن هيئـــة الثقافة الجماهيريـــة هى الجهة الأكثر تقديرًا لســـيد درويش. تصدر عنه الكتب والدراســـات والأبحاث. وأجرت مســـابقتها الكبرى عن موسيقاه عام ٢٠٠٨ – ٢٠٠٩ بمناسبة مرور ٨٥ سنة على رحيله. لكن وزارة الثقافة فى جهة أخرى أهملت تراث الرجل، بل وآثاره. فبدلا من أن تطلق اسمه على حى كوم الدكة بالإســكندرية الذى ولد فيه. حاصرت منزله. وطرد سكانه استعدادًا للنسف. وهو نفس المصير الذى لاقـاه منزله فى القاهـــرة والذى عاش فيه فى حى جزيرة بدران بشـــبرا. حين تصدع وانهار دون مدد أو مساعدة من وزارة أهم واجباتها حماية وتأمين والحفاظ على آثارهم تخليدا لهم وتوعية للأجيال.

يســـتحق ســـيد درويش تكريم مصر له. وتكريم العرب أجمعين. فهو مؤســـس اللغة الموسيقية العربية التى استخدمها فى إبداعات موسيقية جديدة ملتزمة. هى فى السلام وردة رقيقة. جميلة. ناعمة. وفى الحرب أو الكرب حد السيف.

□□□